Available at:
http://ejournal.unida.gontor.ac.id/index.php/tsaqafah
https://dx.doi.org/10.21111/tsaqafah.v13i2.1098

ISSN: 1411-0334
e-ISSN: 2460-6065
TSAQAFAH
Jurnal Peradaban Islam

شريعة القرآن علاج لمشكلات الإنسان: قراءة في فكر محمد عبد الله دراز في الإعجاز التشريعي للقرآن

Jauhar Ridloni Marzuq*
Universiti Islam Sultan Sharif Ali (UNISSA), Brunei Darussalam
Email: Jauhar15ridloni@gmail.com

Abstract

Although sophisticated discoveries in the field of science and technology have been found, human beings are still continuing to face the problems of life, such as injustice, social imbalance, arbitrariness, and greed. They forget that religion is still needed to solve these problems. In Islam, al-Qur'an and its teachings are the answer for these problems. This article tries to prove it through an analyzing Muhammad Abdullah Diraz's thought. As a Muslim scholar, Diraz is able to integrate Islamic and Western knowledge. His thoughts have a strong characteristic in combining the *naqli* and *aqli*, fiqh naṣ and *fiqh wâqi'*. According to Diraz one of the miracles of the Qur'an is that its sharias are not owned by other rules, in terms of methods, concepts, and contents. One of the main points of miracles of the Qur'anic laws is its ability to unify the two things that always contradict. The laws of the Qur'an are gentle but firm, fair but loving, simple but flexible, idealistic but realistic. All combined in a suitable and balanced portion. These features are what Diraz attempts to present in his studies of al-Qur'an. Diraz's theory is very appropriate to be a foothold in offering the laws of al-Qur'an to the people of the world who are in confusion looking for a way out of their problems.

Keywords: The Miracles of al-Qur'an, Islamic Sharia, Muhammad Abdullah Diraz, Problems of Life, Solutions of Life.

* Jurusan Tafsir Hadis, Fakulas Ushuluddin, Universiti Islam Sultan Sharif Ali (UNISSA). Simpang 347 Jalan Pasar Gadong, Bandar Seri Begawan, Brunei Darussalam, Phone: +673 246 2000.

Abstrak

Meski penemuan-penemuan canggih di bidang ilmu pengetahuan dan teknologi telah ditemukan, manusia tetap saja tidak dapat terlepas dari permasalahan kehidupan, seperti ketidakadilan, ketimpangan sosial, kesewenang-wenangan, dan keserakahan. Manusia lupa bahwa agama tetap dibutuhkan dalam menghadapi permasalahan-permasalahan itu. Dalam Islam, al-Qur'an dan syariat-syariat yang terkandung di dalamnya merupakan jawaban atas permasalahan manusia itu. Artikel ini mencoba untuk membuktikan melalui pemikiran Muhammad Abdullah Diraz bahwa syariat al-Qur'an dapat menjawab problematika manusia. Diraz adalah cendekiawan Muslim yang mampu memadukan keilmuan Islam dan keilmuan Barat. Pemikiran-pemikirannya memiliki kararteristik yang kuat dalam memadukan dalil-dalil *naqli* dan *aqli*, *fiqh naṣ* dan *fiqh wâqi'*. Menurut Diraz salah satu kemukjizatan al-Qur'an adalah bahwa syariat-syariat yang terkandung di dalamnya tidak dimiliki oleh aturan-aturuan lain, baik dari segi metode, konsep, maupun isinya. Salah satu titik utama kemukjizatan hukum-hukum dalam al-Qur'an adalah kemampuannya dalam menyatukan dua kecondongan yang biasanya selalu bertentangan. Hukum-hukum dalam al-Qur'an bersifat lembut tapi juga tegas, adil tapi juga penuh kasih sayang, simpel tapi fleksibel, idealis tapi juga realistis. Semua dipadukan dalam porsi yang sesuai dan berimbang. Keistimewaan-keistimewaan hukum itulah yang berusaha ditampilkan oleh Diraz dalam kajian-kajiannya tentang al-Qur'an. Teori Diraz tersebut sangat tepat untuk dijadikan pijakan dalam menawarkan hukum-hukum al-Qur'an kepada masyarakat dunia yang sedang dalam kebingungan mencari jalan keluar permasalahan mereka.

Kata Kunci: Kemujizatan al-Qur'an, Syariat Islam, Muhammad Abdullah Diraz, Problematika Kehidupan, Solusi Kehidupan.

المقدمة

إن الإنساينة اليوم تعاني من مشكلات متعددة وتموج في فتن من الظلمات المتراكمة: ففساد هنا واستبداد هناك، وحرب هنا ودمار هناك، وفقر هنا ومجاعة هناك، ومكر هنا وجرائم هناك. حقوق الحياة قد صارت نسيا منسيا، وضمير الإنسان أصبح لا يملك سلطانا، وإنما السلطان للهوى المتبع، والشح المطاع. فخط الحياة الإنسانية الحالية كما –بينه سيد قطب– يمضي يوما بعد يوم في تدمير خصائص الإنسان وتحويله إلى آلة من ناحية وإلى حيوان من ناحية أخرى. وإذا كان هذا الخط لم يصل إلى نهايته بعد،

وإذا كانت آثار هذه النهاية لم تتضح اتضاح كاملا، فالذي ظهر منها حتى اليوم، في الأمم التي وصلت إلى قمة الحضارة المادية يشي بتناقص الخصائص الإنسانية وضمورها وتراجعها، بقدر ما يشي بنمو الخصائص الآلية والحيوانية وتضخمها وبروزها.[1]

وإنه لا يبقى الضعفاء عائشين في وسط الأقوياء إلا خاف كل واحد من الآخرين، وساء ظن كل واحد بآخر، فساد الجرائم والفساد، وأصبحت خصائص الإنسان التي صار بها إنسانا والتي بدونها لا تملك المضي في خلافة الأرض والسيادة على عناصرها تدمر تدميرا بشعا. والإنسانية لا تدري ولا تستمع لأصوات العقلاء الذين ينذرونها بالخطر، وإن استمعت فلا تملك أن تتوقف عن المضي إلى الهاوية. فكل القوانين والدساتير والشرائع التي اخترعوها من أنفسهم لا تحملهم إلا قربا إلى أبواب الدمار والبوار.

فلا بد إذن من طريق الخلاص وعلاج الداء، والناس في حاجة ماسة إلى شرائع تنظم حياتهم من كل جوانبها: عقلية ونفسية، فكرية وروحية، فردية واجتماعية. فهي حاجة ضرورية يشعرها كل إنسان حي ضميره لتعصمهم من الهلاك وتحملهم إلى بر السعادة والأمان، ولا قوام لحياة الناس بدون هذه الحاجة، لأنها نداء الفطرة السليمة، ومبعث السعادة والطمأنينة، ومناط الأمل في خيرى الدنيا والآخرة.

إنها لموجودة في القرآن، ذلك الكتاب الإلهي الخاتم والمعجزة الكبري الخالدة الذي ما أنزله الله إلا لهداية الناس من ظلمات الوهم إلى نور العلم، والأخذ بهم من الشقاوة إلى السعادة. فما هي خصائص شرئع القرآن حتى تجله معجزة خالدة وعلاجا لكل مشكلات الإنسان؟

محمد عبد الله داز (١٣٨٨-١٣٢١هـ/١٩٥٨-١٨٩٤م)، عالم أزهري وفيليوف قرني متفرد، يقدم لنا أفكارا طريفة ودراسات موضوعية مقنعة يؤكد بها إعجاز القرآن في ناحيته التشريعية، وأنها شريعة وحيدة بها يعالج الناس مشكلات حياتهم وينال سعادتهم في الدارين.

[1] سيد قطب، **الإسلام ومشكلات الحضارة**، (القاهرة: دار الشروق، ط. ٢١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ٧.

لمحة عن ترجمة محمد عبد الله دراز

محمد عبد الله دراز ولد بقرية محلة دياي إحدى قرى دلتا مصر بمحافظة كفر الشيخ حاليا سنة ١٣١٢هـ الموافق بـ٨ من نوفمبر ١٨٩٤م[٢] في أسرة علمية عريقة؛ فوالده الشيخ عبد الله دراز الفقيه اللغوي المعروف الذي قدّم شروحا لكتاب ''الموافقات'' لأبي إسحاق الشاطبي، والذي عهد إليه الإمام محمد عبده بمهمة الإشراف على المعهد الأزهري الجديد بالإسكندرية؛ اطمئنانا إلى علمه وكفاءته. ويبدو أن أسرة دراز نزع بها عرق وقرابة عقلية خاصة مع المغرب العربي، ربما لانتساب الأسرة تقليديا إلى المذهب المالكي.[٣]

فمن ذلك البيت الطيب نشأ دراز وفيه ترعرع، فشرب من ينبوعه الصافي ونهل من بئره النقي، فنبت نباتا حسنا تحت رعاية والده الذي يرشده ويوجهه ويؤدبه أحسن تأديب.[٤] وعن والده تلقى دراز العلوم العربية والإسلامية ومكارم الأخلاق، وعليه وصل السماع والتلقي حتى نال إعجاب العلماء الذين يغشون منزل أبيه بما أظهر من استقامته في الخلق وطيبه في السيرة وشغفه الكبير في طلب العلم. فعُرف منذ صغر سنه بالفطنة والذكاء والنباهة والطموح، وتساميه على أقرانه في العلم والمعرفة، وتفوقه عليهم في أكثر مراحل الدراسة.

ابتدأ دراز رحلته العلمية من المرحلة الابتدائية بقريته، وإلى جانب ذلك تعلم حفظ القرآن بالتجويد في مدرسة القرآن بنفس القرية على يد الشيخ سعد القرنشاوي. وقد تميز منذ نعومة أظافره بنبوغه وبشغفه القوي في تحصيل العلم. ولم يكن قد استكمل العاشرة من عمره إلا وكان قد حفظ كتاب الله بأكمله ودرس قراءات القرآن المختلفة.[٥]

---

[٢] أحمد مصطفى فضلية، **الإمام المجدد محمد عبد الله دراز: سيرة وفكر**، (القاهرة: مكتبة الإيمان، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م)، ٨٣.

[٣] محمد بن المختار الشنقيطي، **خيرة العقول المسلمة في القرن العشرين**، (الدوحة: د.ط، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م)، ٩.

[٤] أحمد مصطفى فضلية، **الإمام المجدد**...، ٤.

[٥] من كتابة الدكتور محسن دراز عن سيرة أبيه في ترجمته باللغة الفرنسية لكتاب ''الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان'' للدكتور محمد عبد الله دراز. انظر: أحمد مصطفى فضلية، وآخرون، **الدكتور محمد**

وبعد أن استكمل حفظ القرآن انتقل دراز إلى الاسكندرية في أوائل ١٩٠٥م حيث التحق بمعهدها الناشئ، في معية والده الذي كان وقع عليه اختيار أستاذه الإمام محمد عبده لكي يشارك في إعادة تنظيم التعليم بالمعهد الديني الأزهري الجديد بمدينة الاسكندرية. وفي عام ١٩١٢ انتقل دراز مرة أخرى في صحبة والده إلى الجامع الأحمدي ونال منه الشهادة الثانوية. ثم بعد عودة والده إلى مشيخة معهد الاسكندرية عاد معه إلى المعهد الذي نشأ فيه نشأة ابتدائية، فقضى القسم العالي وحصل في نهايته على الشهادة العالمية في الأزهر، وكان أول المتخرجين من الطلاب جميعا عام ١٩١٦م.[٦]

وفي نفس العام، وبعد أن اجتاز محمد عبد الله دراز دراسات موفقة في هذ المعهد نفسه، قام بالتدريس به وهو في الثانية والعشرين من عمره. وخلال هذه الفترة –وبالتوازي مع وظيفته الجديدة– بدأ تعلُّم اللغة الفرنسية في المدارس الليلية حتى نال شهادة القسم العالي فيها سنة ٩١٩١م وكان من أول الناجحين منها.[٧]

وفي عام ٨٢٩١ اختير دراز للتدريس بالقسم العالي بالأزهر، ثم بقسم التخصص عام ١٩٢٩، ثم بكلية أصول الدين عام ١٩٣٠,[٨] وفي موجة الحر الشديد التي اجتاحت القطر المصري، وبعد عودته من فريضة الحج عام ١٩٣٦م كُتب اسم دراز ليكون من بين أسماء مبعوثي الأزهر الشريف في بعثة فؤاد الأول إلى فرنسا، وقُدِّر له أن يغادر القاهرة ثانية ليسافر إلى باريس تاركا زوجته وأولاده التسعة.[٩]

أقام دراز في فرنسا اثنتي عشرة سنة مضت كلها جدا وانكبابا على استيعاب الثقافة الغربية من منابعها الأصلية، ومتأملا مقارِنا لتلك الحصيلة بمبادئ علم الأخلاق في القرآن الكريم، وعمل جاهدا على تقديم موضوع الرسالة للحصول على تصديق

عبد الله دراز: دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه، (القاهرة: دار القلم، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م)، ٣١.

[٦] محمد منير الأزهري، **محمد عبد الله دراز وجهوده في الفكر الإسلامي المعاصر**، (القاهرة: دار القلم، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)، ٢٦.

[٧] أحمد مصطفى فضلية، **الإمام المجدد...**، ٤٥.

[٨] محمد عبد الله دراز، **الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان**، (الكويت: دار القلم،١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ٨.

[٩] أحمد مصطفى فضلية، **الإمام المجدد...**، ٢٥.

عليه قبل البدء في تأليف الرسالة الكبري وهي ''دستور الأخلاق في القران''، والرسالة المتممة لها وهي ''التعريف بالقرآن''.[١٠]

استغرقت رسالة الدكتوراه زهاء عشر سنوات، لم ينقطع العمل فيها بتةً على الرغم من عقبات الحرب – حيث وطأت قدما دراز فرنسا عام ١٩٣٦– وتقدم لنيل الدكتوراه في عام ١٩٤٧. وقد نوقشت هذه الرسالة أمام لجنة مكونة من خمسة أعضاء من أساتذة جامعتى السوربون والكوليج دي فرانس، قوامها الأساتذة ''لويس ماسينيون'' و''ليفي بروفنسال'' و''لوسن'' و''فالون'' و''فوكونيه''، وذلك في الخامس عشر من شهر كانون الأول سنة ١٩٤٧م، ومنحته اللجنة الفاحصة شهادة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولي.[١١]

فجهاد عشر سنوات يسفر عن رسالة ثمينة ضحمة تعد من أهم المراجع الأساسية في علم الأخلاق والدراسات القرآنية، قدم دراز خلالها رؤية متكاملة للنظرية الأخلاقية القرآنية في شقيها النظري والعملي.

ومهما لم يبلغ دراز أرفع المناصب العلمية الرسمية التي كان يستحقها عن ثقة وجدارة، فقد كان المثقفون جميعا يجمعون على سمو منزلته الفكرية، ويعدونه رأسا بارزا من رؤوس الفكر الإسلامي المعاصر، وقد أثبت تاريخه العلمي حقائق سافرة لم تعد بعد موضعا للنزاع من أحد، منها: أن العبرة لدى الدارسين تعظم بجودة التأليف لا بكثرته، وبطرافته لا بتقليديته.

يعد محمد عبد الله دراز من أعلام مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامي التي كان رائدها وباعث نهضتها ومحدد معالمها، الإمام المصلح الشيخ محمد عبده، ومن قبله المفكر والفيلسوف جمال الدين الأفغاني.[١٢] وكان للعقيدة والشريعة والأخلاق القدر الأوفى من تفكيره وتجاوبه، فقرأ فيها كثيرا وأدرك بثاقب فكره وبعد نظره أن المسلمين قد جهدوا أنفسهم في جوانب من الخلاف لم يكن لهم أن يحفلوا بها، وأن العناية بأمر العقيدة الأخلاق وشريعة الله هي طوق النجاة لأمة الإسلام الكبرى، وأن

---

[١٠] **المرجع نفسه**، ٤٥.

[١١] محمد عبد الله دراز، **المختار من كنوز السنة**، (الدوحة: د.ط، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)، ز.

[١٢] أحمد مصطفى فضلية، **الإمام المجدد**...، ٩٥.

المسلمين إذا تماسك مجتمعهم وعاش أفراده بروح خالية من التعصب والحزبية والإباحية والتحلل كان أيسر عليهم، وأحفظ لأخواتهم، وأدنى إلى توحيدهم وائتلاف قلوبهم.[١٣]

لا يشك أحد في اعتبار دراز من أكابر أعلام الفكر الإسلامي المعاصر بفكره المستنير الشفاف الواضح، وعبارته الجزلة السهلة الممتعة، وتمكنه من الاطلاع على العلوم الشرعية وبنفس القدر على شؤون العصر ومتغيرات الزمان. وهو عالم موسوعي، برع في علوم القرآن والحديث والفقه والعقيدة والبيان، كما رسخ في الفلسفة ومقارنة الأديان والعلاقة الدولية وعلم الاجتماع. وهذا الشيخ محمد أبو زهرة يصفه بقوله: ''عالم فقيه عميق النظرة صادق الإيمان ثبت في علمه قوي في تدينه''.[١٤]

وقد تميزت أفكار دراز بالمزيج بين الأصالة والمعاصرة، وبين الدين والفلسفة، وبين تراث الشرق وفكر الغرب. كان محمد دراز ابن الأزهر البار وابن السوربون المتفوق على حد سواء، فقد أتاحت له الدراسة المعمقة لكل من الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية من منابعها الإصلية، حتى تمكنت لديه رؤية تركيبية تحليلية فريدة، بعيدا عن السطحية التبسيطية، وعن سوء الهضم العقلي الذي أصاب الكثيرين ممن وقفوا على حدود الثقافة الموروثة الراكدة أو الغربية الوافدة.[١٥] وقد كان دراز متعمقا في روحانية ابن مسكويه والغزالي وأبي طالب المكي والفخر الزاري والشاطبي، ومتضلعا وفي الوقت نفسنه بفلسفة أرسطو وأفلاطون وديكارت وكانت وبرجسون.

وقد امتاز دراز أيضا بفضل هذا الفكر التركيبي برحابة الأفق وعمق التحليل ودقة الاستدلا، مع حجج مقنعة وبلاغة ساحرة استمدها من بلاغة القرآن الكريم. وبذلك، لقد نجح في الكشف عن وجه الحقيقة بين بيان الإسلام الناصع ووجهته الصادقة وبين ما تحمل هذه النظريات الغربية والمذاهب الفلسفية من قصور والتواء بما يجعلها غير صالحة للفطرة الإنسانية في عصر القرآن، ليس للمسلمين وحدهم بل، للبشرية كلها.

وإلى جانب ذلك، فقد تمزتت أفكار الشيخ أيضا بأصالة الفكر ودقة التعبير وجمال البيان، حيث جمع بين عمق الرأي ونصاعة الأسلوب وقوة الحجة ونفاذ

---

[١٣] المرجع نفسه، ٢٣١.

[١٤] أحمد مصطفى فضلية، وآخرون، **الدكتور**...، ٨١.

[١٥] محمد بن المختار الشنقيطي، **خيرة العقول المسلمة**...، ١٠.

النصيرة ورصانة الكلمة وإشراقة النص. الأمر الذي جعل لكتاباته وقع الزاد وموضع الرأي لأصحاب الفكر، والدواء الناجع للحيارى والتائهين. كما اتسمت في نفس الوقت بالوسطية الإسلامية السمحة، تجلت في تناوله لعدد من الثنائيات الكبرى التي حيرت الفكر الإسلامي واستنزافته، أمثال قضية العقل والنقل، والسنة والبدعة، والجبر والاختيار، والسلم والحرب، والعلم والدين، والخلق والقانون، وغيرها.

وإلى كونه رجلا من رجال الإصلاح والتجديد وعلما من أعلام الفكر الإسلامي، لقد عُدَّ الشيخ أيضا من زمرة علماء القرآن ومفسريه الأفذاذ في عصرنا الحاضر. وقد ترك لنا من دلائل ذلك كتابه الرائع ''النبأ العظيم''، وهو كتاب متفرد يحتوي على نظرات جديدة ومتميزة في الإعجاز البياني أو الأدبي للقرآن، لم ينسجه على منوال أحد قبله في مضمونه وأسلوبه.

كما ترك كتابه ''مدخل إلى القرآن الكريم'' الذي كتبه بالفرنسية، ثم ترجم إلى العربية، وتفسيره سورة الفاتحة والبقرة، ومقدمة التلاوة لعدد من سور القرآن الكريم التي كانت تدل كلها على عمق نظراته إلى كتاب الله وتذوقه لمعانيه وغوصه في أسراره.

وأعظم من كل ذلك كله أطروحته لنيل درجة للدكتوراه في فرنسا، وهو كتاب ''دستور الأخلاق في القرآن''، حيث رأينا فيها غطا فريدا وصياغة جديدة وتحليلا بديعا وفهما بصيرا لكل ما يأتي وما يدع، فضلا عن البيان الساحر والاسلوب الأخاذ في عبارة رشيقة أنيقة لا تصنع فيها ولا تكلف.

وقد اتسمت أفكار دراز في الدراسة القرآنية بالجدة والطرافة، سواء من ناحية المضمون أو المنهج. فأما من حيث المضمون، فشواهده عديدة لا تخطئها العين، ومن أجلها تفسيره سورة البقرة والفاتحة، إذ أتى بتحليل فريد ليستخرج خلالها تعاليم قرآنية جديدة لم يسبقها الأوائل. فمع تتابع المفسرين الذين سبقوا الشيخ —هو ولا شك ألوف– يتحفنا دزار بالجديد في تفسيره هذا، ويتمثل ذلك في سبق الخاطرة ودقة التعليل وسلامة الاستنتاج، فضلا عن طرافة الفكرة التي ساقها إلى كل هذه المعاني.

وأما من حيث المنهج فالجدة والطرافة تتجليان في سلوكه المنهج المخالف عن السابقين، إذ بدلا من تفسير الآيات حسب الترتيب المصحفي، أخذ يفسر القرآن

بجمع الآيات المتعلقة بالقضية الواحدة، ليبحث فيها بحثا علميا منهجيا مستوعبا من كل جوانبها، ثم يستنبط عقبها شريعة قرآنية وتعاليم إلهية هادية لتلك القضية.

توفي الشيخ محمد عبد الله دراز في عشية يوم الإثنين السادس عشر من شهر جمادى الثانية سنة ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م عندما كان في لاهور باكستان ممثلا لمصر والأزهر في مؤتمر الثقافة الإسلامية. فكانت وفاته حدثا مولما عكر صفوة جلسات المؤتمر الإسلامي بلاهور، وأذاع الحزن والألم في نفوس جميع أعضاءه. فرحمه الله رحمة واسعة وأدخله في فسيح جنانه، وجزاه الله عن أمته خير ما جزى الرسل والأنبياء والعلماء والصالحين. آمين.

الإعجاز التشريعي للقرآن دليل على أنه كتاب منزل

إن لفظ الإعجاز في قولنا إعجاز القرآن ولفظ المعجزة في قولنا معجزات الأنبياء، كلاهما لفظ محدث مولد. وبيقين قاطع، لا نجدهما في كتاب الله ولا في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. بل لم نجدهما في كلام أحد من الصحابة ولا في شيء من كلام التابعين ومن بعدهم إلى أن انقضى القرن الأول من الهجرة، والقرن الثاني أيضا، ثم نجدهما فجأة يظهران على خفاء في بعض ما وصلنا من كلام أهل القرن الثالث ثم يستفيضان استفاضة ظاهرة غامرة في القرن الرابع وما بعده إلى يومنا هذا.[١٦]

فمصطلح إعجاز القرآن إذن لفظ وضع في أواخر القرن الثالث للهجرة، ولم يكد حتى أحدث تاريخا مستفيضا رائعا، شارك فيه أكبر علماء الأمة في اللغة والبيان والتفسير وعلوم القرآن وعلوم الكلام.[١٧] ولكن السؤال يتبادر في الذهن، ما هي حقيقة إعجاز القرآن الذي تحدى الثقلين على مر العصور، عربا وعجما، سلفا وخلفا؟

إن لفظ الإعجاز لغة مصدر الفعل الماضي الرباعي، نقول: أَعجز يُعجِز إعجازا. والجذر الثلاثي للكلمة هو عجز، نقول عجز بعجز عجزا، فهو عاجز.[١٨]

---

[١٦] محمد محمود شاكر، **مداخل إعجاز القرآن**، (القاهرة: مكتبة المدني، د.ت)، ٢٠.

[١٧] **المرجع نفسه**. ٨.

[١٨] صلاح عبد الفتاح الخالدي، **إعجاز القرآن البيان ودلائل مصدره الرباني**، (عمان: دار عمار، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، ١٣.

والعجز أصله التأخر عن الشيء. حصوله عند عجُز الأمر، أي: مؤخره. وصار في التعارف اسما للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة. وأعجزت فلانا، عجزته وعاجزته: جعلته عاجزا.

معنى الإعجاز إذن هو: الفوت والسبق. ويطلق على الفائز، السابق لخصمه الذي جعل خصمه عاجزا عن إدراكه. ولذلك يقول الخصم المغلوب العاجز: أعجزني فلان إعجازا، بمعنى سبقني وفاتني وجعلني عاجزا عن طلبه وإدراكه. وهذا المعنى الاصطلاحي لمصطلح الإعجاز متحقق في مصطلح "إعجاز القرآن".[١٩]

وإذا كان القرآن أعجز الناس عن الإتيان بمثله فسمي بذلك معجزة. والمعجزة في اللغة من أعجز، والعجز وهو ما يقابل القدرة، والهاء فيها للمبالغة. وفي لسان العرب في مادة عجز: العجز نقيض الحزم، والعجز: الضعف، وعجز عن الأمر إذا قصر عنه. وفي القرآن قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [سورة الحج: ٥١] قال الزجاج: معناه ظانين أنهم تعجزوننا، لأنهم ظنوا أنهم لا يبعثون وأنه لا جنة ولا نار وقيل معناه معاندين. وعرف العلماء المعجزة بقولهم: أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم من المعارضة يظهره الله على يد رسله.[٢٠]

وإذن فمعنى المعجزة هو أنها الآية الكاشفة عن عجز جميع الخلائق، المبطلة لجميع قدراتهم على مثلها المبينة عن قدرة الله الذي لا يعجزه شيء في السموات والأرض. وبيّنٌ أن المعجزة ليست من فعل النبي ولا هي داخلة في قدرته، بل هي من عند الله وآية ينزلها عليه بمشيئته وحده. وهذا هو صريح الدلالة التي يدل عليها القرآن العظيم في قوله: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِآيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سورة العنكبوت: ٥٠] وقوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ١٠٩]، وآيات أُخر.[٢١]

---

[١٩] **المرجع نفسه**، ١٥-١٦.

[٢٠] مصطفى مسلم، **مباحث في إعجاز القرآن**، (الكويت: دار القلم، د.ت)، ٦٦.

[٢١] محمد محمود شاكر، **مداخل...**، ١٨.

ونقصد بالإعجاز التشريعي هو تفوق القرآن الكريم وتميزه فيما قدمه وتناوله من التشريعات والنظم والمبادئ والقيم في شتى مناحي الحياة ومختلف جوانبها بصورة لا يمكن لبشر غير مؤيد بالوحي الإلهي أن يأتي بها. أو بعبارة أخرى سمو التشريعات القرآنية وشمولها وكمالها إلى الحد الذي تعجز عنه كل القوانين البشرية مهما بلغت، حتى عجز المشرعون محاكاتها وإدراكهم كل ما فيه من أسرار تشريعه.[٢٢]

والإعجاز التشريعي للقرآن تعد من أهم الأدلة على أن هذا الكتاب وحي منزل من عند الله عز وجل وليس من صُنع محمد بشيء، كما أنها تؤكد صدق ما قاله الرسول في حديث رواه الترمذي تنبئ أن القرآن لن تنقضي عجائبه، فهو بذلك يظهر دائما وجوه جدبدة من الأعاجيب ما يؤكد بها أن القرآن ليس من صنف اختراء البشر، بل محض الوحي الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه تنزيل من حكيم حميد. ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة فصلت: ٥٣]. وقد أودع الله في هذا الكتاب الكريم كلَّ ما فيه صلاح أمر الآدميين، وما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، فكان طبيعيًّا أن يشتملَ على وجوهٍ كثيرة في الإعاجيب والطرئف والروائع التي سميت فيما بعد بوجوه الإعجاز.

وقد أكثر العلماء والدارسون في البحث عن وجوه إعجاز القرآن، وخلَّفوا تراثًا ضخمًا يشتمل على ما اهتدوا إليه من هذه الوجوه، منهم من زاد ونقص، ومنهم من قصر جهده على البحث في الدرس القرآني؛ ليدمغ الحجج الواهية فيما يوجَّه إلى القرآن الكريم من شُبَه ومطاعن في ألفاظه ومعانيه، وأحكامه وإعجازه، ولم يزل القرآن حيًّا متجددًا يفوق طاقة الدارسين.

والمتتبع لمباحث وجوه الإعجاز وآراء العلماء فيها، يجد أنهم اختلفوا في هذه القضية إلى القولين:

- القول الأول، يرى أن الإعجاز القرآني ينحصر على القضية اللغوبية والبيانية دون غيره، كإحكام النظم ودقة الألفاظ والإيجاز والتشبيه وحسن البيان. وذهب إلى

[٢٢] أحمد محمد أحمد الكرنز، "الإعجاز التشريعي لآيات الحج في القرآن"، **بحث مقدم لنيل درجة الماجستير**، (غزة: الجامعة الإسلامية، ١٤٢٩/٢٠٠٨)، ١٢.

هذا القول من المتقدين الجاحظ والرماني وعبد الجبار والجرجاني، ومن المعاصرين محمود شاكر وعائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ وعدنان رزرور وعبد الفتاح الخالدي.

- والقول الثاني يرى أن الإعجاز القرآني لا ينحصر على قضية البلاغة القرآنية، وإنما تجازو قضايا أخرى كأخباره بالمغيبات السابقة واللاحقة، والإشارات العلمية المكتشفة، والشرائع الحكيمة التي تضمنها القرآن. بل ويرى أن وجوه الإعجاز القرآن تتجدد دائما لتكون دليلا جديدا على صدق معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم. وممن مال إلى هذا القول من المتقدمين الخطابي والباقلاني والقاضي عياض والغزالي والسيوطي، ومن المعاصرين جمع كثير من العلماء كمحمد عبده ورشيد رضا وطنطاوي جوهري ومحمد بن أحمد الإسكندراني وزغلول النجاز وآخرون كثيرون. بل لا نبالغ أن قلنا إن هذا القول هو قول جمهور العلماء المعاصرين.

وخلال تتبعنا لكتابات دراز نجد أنه ما إلى القول الثاني مع قبوله أن الإعجاز الحقيقي وأهمه الذي هو محل التحدي كان في ناحينه اللغوية. ويرى دراز أن القرآن بما احتواه من مبادئ وتعاليم وشرائع يعجز الإنسان بأجمعه عن المضاهاة والممائلة.

خصائص الإعجاز التشريعي عند دراز

قضية الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم من أكبر ما اهتم بها دراز بناء على تأثره بمدرسة المنار كما سبق أن ذكرنا، فتأسيا لشيوخة وأساتذه أمثال محمد عبده ورشيد رضا والمراغي تكلم دراز كثيرا عن مميزات الشرائع القرآنية من حيث عقائدها وعباداتها وأخلاقها، وأكد بالأدلة العقلية والنقلية والبراهين المقنعة على سمقها وسموها عن الشرائع الأخرى قديمها وحديثها، شرقها وغربها.

وعقب الاطلاع على مؤلفات دراز وكتاباته تتجلى لنا حقيقة الإعجاز التشريعي للقرآن عند دراز من خلال مجموع نقاط تالية:

١. شريعة عامة شاملة

ومن أبرز مظاهر الإعجاز التشريعي في القرآن عند دراز أنها شريعة عامة شاملة، فهي ليست موجهة إلى الأمة الإسلامية فحسب، بل هي للعالم بأسره، وهي للناس في شتى أنحاء الأرض بغض النظر عن جنسهم وأصلهم، أنزلت إليهم لتدخل السرور والبهجة إلى قلوبهم وتطهر نفوسهم وتهذب أخلاقهم. نصوص القرآن تنظم بمجموعها على منهج كامل للحياة يشتمل على ما ينبغي على الإنسان أن يسلك مع نفسه، وفي أسرته، ومع الناس أجمعين. كما تنظم تنظم المبادئ التي يجب أن تحكم العلاقات بين الحاكمين والمحكومين، وبين والدول أو المجتمعات، وكيف يؤدي الإنسان العبادة لله. كل ذلك قد قيل بطريقة واضحة محددة.[٢٣]

فهي لا تقتصر على طقوس العبادة فحسب، بل تشمل حلولا لجميع قضايا البشر إلى قيام الساعة. "فالقرآن له أعلى خطوة لدى المسلمين، وهو ليس كتاب صلوات أو أدعية أو غذاء روحي أو تسابيح بل إنه أيضا القانون السياسي وكنز العلوم ومرآة الأجيال. إنه سلوى الحاضر وأمل المستقبل."[٢٤]

والتشريع القرآني –في بيان دراز– في جميع مراحله وأطواره، وفي جميع وسائله واتجاهاته إنما يهدف إلى الإصلاح الخلقي والنفسي والفكري، والإصلاح الاجتماعي والسياسي والقانوني. فهي شريعة شاملة غاياتها إنما تلتقي عند إيجاد مجتمع سليم نظيف، وشعب ناهض قوي، وإخاء عالمي يقوم على أساس من الحب والعدل والمساواة والسلام.[٢٥]

وشمولية التشريع القرآني لا تقتصر على الشمولية المجردة فحسب، بل أضيف إليها بشدة العمق للنفس الإنسانية وحاجاتها العابرة: المشروعة أو غير المشروعة؛ كما أنها تفرق بين ما ينبغي أن يترك دون مساس لأنه فريضة لا تتغير، وبين ما يترك لحكم

---

[٢٣] محمد عبد الله دراز، **دستور الأخلاق في القرآن: دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م)، ١٠.

[٢٤] محمد عبد الله دراز، **دراسات إسلامية في العلاقة الدولية والاجتماعية**، (الكويت: دار القلم، ط.٦، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)، ١٣–١٨.

[٢٥] محمد عبد الله دراز، **نظرات في الإسلام**، (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م)، ٤١.

كل منا، لأنه يتغير بتغير الملابسات والظروف، وبين ما ينبغي إصلاحه، أو إسقاطه باعتباره إضافة زائفة صدرت عن طبيعة غريبة شريرة. ولذلك أثبت القرآن مراعاة لهذه الأحوال المبدأ الثلاثي المتمثل في: الفرض والمباح والمحرم.[٢٦]

وإلى جانب ذلك كانت الشرائع القرآنية في بيان دراز ببنيت على أسس سليمة متينة، لا تضعف ولا تتزعزع، فهو تشريع شامل ييجاوب مع مصالح الناس وحاجياتهم، دون أن يفرض عليهم عنتا أو حرجا، وهي فوق كل الشرائع البشرية بثروتها التي لا تنفد، ''هذه الثروة التي تلمسها بنفسك في العقائد والأخلاق والقيم الإنسانية وفي أصول القوانين والدساتير والنظم السياسية والاجتماعية.''[٢٧]

٢. شريعة بسيطة مرنة

ولقد أظهر دراز أيضا أن الشرائع القرآنية كان غاية في البساطة والمرونة. فبساطتها تتجلي في طابعها الإجمالي دون التفصيل والإفراط في الكيف والكم، ومرونته تتجلى في ترك كل فرد حرية اختيار الشكل الذي يكيف في نظاقه مثله الأعلى؛ طبقا للشروط التي تمليها التجربة، كما يختار الشكل الذي يوائم به بين الواجب العاجل والمقتضيات الأخرى التي تمليها الأخلاقية.

وعلى ذلك لم يحدد القرآن مثلا الطريقة التي يستشار بها الشعب في القضايا العامة، ولم يحدد شكل الدولة المسلمة، وطريقة اختيار رئيسها: أهي اقتراع شامل، أو مقتصر على الصفوة؟ وهل هي جمهورة أو ملكية؟ ألخ..[٢٨] وهذا يجعل شريعة القرآن سهل المنال خلاف الشرائع الأخرى التي تفرط في تحديد الكيف والكم. يقول دراز: ''البحث المفرط في التحديد القانوني يمكن أن يظهر لدى أولئك الذين تضعن القانون أو أولئك الذين يخضعون له. ففي الحالة الأولى يفرض القانون ويحتمه نوع من الحذر لدى المشرعين، إزاء الأفراد الذين يناط بهم تطبيقه؛ ومع ذلك فهو يتجه إلى إلغاء كل مبادأة، وإلى أن يجعل الحياة المشتركة رتيبة لا تطاق، وإلى أن يجعل من أعضاء المجتمع

[٢٦] محمد عبد الله دراز، **دستور الأخلاق**...، ٦٨٢.
[٢٧] محمد عبد الله دراز، **نظرات في الإسلام**...، ١٣.
[٢٨] محمد عبد الله دراز، **دستور الأخلاق**...، ١١.

ما يشبه النسخ المكرر من نموذج آلي واحد."[٢٩]

وهذا الطابع الإجمالي حين يجد ما يكمله في طابع آخر يمنحه قيمته العليا، وذلك أن القرآن بعد أن رسم لكل مجال من مجالات الحياة خط سلوكه، يقدم أطرا معدة على هيئة دوائر مشتركة المركز، كل واحدة منها قابلة لأن يتسع وتنكمس في توافق مع المجموع. بل لقد تتداخل هذه الدوائر بالتبادل دون أن تطغى إحداها على الأخرى. ويقول في ذلك دراز: "وبهذه الطريقة استطاعت الشريعة القرآنية أن تبلغ كمالا مزدوجا، لا يمكن لغيرها أن يحقق التوافق بين سقيه: لطف في حزم، وتقدم في ثبات، وتنوع في حدة."[٣٠]، كما يقول أيضا: "وكذلك نجد أن الأطر التي يبنيها صارمة ومرنة في آن".[٣١]

والقرآن قد وضع إلى كل جانبٍ قانونا، وفوق كل قانون قانونا أعلى يقوم على الرخصة والتيسير يتشمل ذلك في قاعدة "الضرورة تبيح كل محظورات" كما يقول تعالى: ﴿ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ [سورة الأنعام: ١١٩].[٣٢]

ويرى دراز أن أهم العوامل في نجاح الشريعة القرآنية لحل قضايا إنسانية ومشكلاتها تتمثل في أن جميع القواعد أو أغلبها تشتمل على أمرين يجب على كل الأنظمة الاجتماعية كي تحقق أهدافها أن تتضمنهما، وهما: أداء واجب وتحقيق خير، أو الأخرى أداء واجب جوهري وواجب كمالي. فيبدو القرآن في النقطة الأولى متشددا لا يقبل أية مساومة، ولكنه في الثانية تتحول صرامة الأمر إلى حث وتشجيع.[٣٣] ويقول في ذلك: "وجملة القول أننا هنا أمام تركيب تلتقي فيه الشدة واللطف، أما وهذا هو الفقه القرآني في هذه المسألة. فلسنا نجد أصدق من أن نقدم بين يدي هذا الفقه شاهدا من النص ذاته، وهو يجمع هاتين الفكرتين في آية واحدة: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ

[٢٩] **المرجع نفسه**، ١١.
[٣٠] **المرجع نفسه**، ١١.
[٣١] **المرجع نفسه**، ١٠.
[٣٢] محمد عبد الله دراز، **الربا في نظر القانون الإسلامي**، (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، د.ت)، ٢٢.
[٣٣] محمد عبد الله دراز، **دستور الأخلاق**...، ٦٨٤.

هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[سورة الحج: ٨٧].''[٣٤]

٣. شريعة وسط ثناءية

ويقصد دراز من وسطية الشريعة القرآنية أنها في كل أنواعها تقوم دائما على المساواة والاعتدال والموازنة في كل الإمور، ففي العقائد لا يُفرِط المسلم ولا يُفرِّط، وفي العبادات لا يتطرف ولا يتحلل، وفي المعاملات لا يسرف ولا يبخل: ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [سورة الإسراء: ٩٢]. فهو تشريع وسط يقوم على أساس من الاعتدال: الاعتدال في كل شيء.[٣٥]

وهذا الاعتدال في كل شيء هو الذي يمتز شريعة القرآن عن غيرها من الشرائع، وهو الذي جعلها صالحة لكل زمان ومكان ومستوفية لمطلبات الإنسان، يقول دراز: ''وفي كل شؤون الحياة يتطلب الإسلام الاعتدال ليكون بمثابة تطبيق للأساس الذي قام عليه بناء الأمة الإسلامية ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾''[٣٦]. فشريعة القرآن تعطي العقل حقه، والقلب حقه والجسم حقه. كما تعطي الفرد حقه، والمجتمع حقه ولا تطغي أحدهما على الآخر.

ومن أمثلة عدالة الشريعة القرآنية ووسطيتها التي ذكرها دراز شريعته في الإنفاق، إذ جعله يتوسط بين الرذيلتين:البخل والإسراف. وحين يدعو المتطرفون من أهل الأثرة والأنانية: نفسك نفسك، ومن ورائك الطوفان. ويدعو المتطرفون من أهل الإيثار والغيرية احرق شكعتك لتضيء الناس، جاء القرآن بحكمته الجامعة: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [سورة القصص: ٧٧] يقول دراز في سلسلة تفسيره ''وثيابك فطهر'': ''نعم إنها الموازنة، تراعى فيها الحقوق كلها، وتؤدى فيها الواجبات جميعها؛ إن لنفسك عليك حقا، وإن لأهلك عليك حقا، وإن لضيفك عليك حقا: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [سورة المعارج: ٢٤-٢٥]، فأعط كل ذي حق حقه.

---

[٣٤] **المرجع نفسه**، ٦٦١.

[٣٥] محمد عبد الله دراز، **نظرات في الإسلام**...، ٨٧.

[٣٦] **المرجع نفسه**، ٨٧.

نعم إنها موازنة، ليست موازنة عددية تتكافأ فيها الأرقام في كل باب، ولكنها موازنة رشيدة تختلف باختلاف الناس وتراواتهم وأعبائهم وسائر ملابساتهم. موازنة تراعى فيها مصالح الدنيا والآخرة جميغها على بصيرة وعلى قدر ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾.''[٣٧] ومظاهر أخرى من وسطية التشريع القرآني تتجلى في أنها توصي بالعدل والرحمة معا، وتتواثق فيها العناصر الفردية والاجتماعية، والإنسانية والإلهية على نحو متين. كما أنها تهدف إلى المثل الأعلى وتعمد إلى تجميع كل القوى وكل أشكال الحياة الأخلاقية، ثم تردها ثانية إلى نقطة توازنها، حتى تستطيع أن توفق بين حرية الفرد وتنظيم إرادته، وبين الحب والخوف. يقول دراز: ''لقد حققت هذا التوفيق بفضل طابعها المتوسط بين المرونة والصرامة، والذي بفضله تتكيف تبعا لأكثر ظروف الحياة اختلافا، دون أن تتراخى مع ذلك أمام إغراء شهواتنا، وتقلب إحساسن.''[٣٨]

فشريعة القرآن لا تلبي فقط كل المطالب الشرعية والأخلاقية والاجتماعية والدينية، ولكنها نجدها في كل خطوة، وقد تغلغل فيها بعمق روح التوفيق بين شتى النزعات: فهي متحررة ونظامية، عقلية وصوفيه، لينة وصلبة، واقعية ومثالية، محافظة وتقدمية –كل في آن[٣٩]. يقول دراز عند كلامه عن شريعة الحج: ''هذه الرقعة الوسط وفي هذا الجو الوسط تستوطن الشعوب الإسلامية التي جعلها الله أمة وسطا: وسط في عقيدتها متجافية عن طرفي الخرافة الجمود، وسطا في شريعتها نائية عن طرفي الواقعية الجامدة القلب والمثالية الذاهلة العقل، وسط في مطامحها بعيدة عن طرفي القناعة الذليلة والحرص الجشع، وسطا في موقعها بين المعسكرات المتنافرة المتناحرة، وسيط سلام بينهما، وداعية أمن وطمأنينة للإنسانية كلها.''[٤٠]

٤. شريعة إنسانية متكاملة

ولا يكتفي بالمميزات التي ذكرناها في السطور الماضية، إن اللمحة البارزة في التشريع القرآني عند دراز هي أيضا كونها شريعية إنسانية تستهدف دائما إلى مصلحة

---

[٣٧] محمد عبد الله دراز، **من خلق القرآن**، (قطر: إدارة الشؤون الدينية، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ٢٢–٢٣.
[٣٨] محمد عبد الله دراز، **دستور الأخلاق**...، ١٨٦.
[٣٩] **المرجع نفسه**، ٦٨٦.
[٤٠] محمد عبد الله دراز، **نظرات في الإسلام**...، ٥٣.

الكيان الإنساني بأكمله. فشرائع القرآن تتضمن كل ما احتاجت إليه الإنسانية لتنظيم حياتها ومعالجة مشاكلها والوصول إلى مصالحها. وقد أكد ذلك دراز في "الدستور" قائلا: "لو افترضنا أن الإنسانية سوف تبقى أبدا، وأنها سوف تغير ظروف حياتها إلى ما لا نهاية، فإننا نؤمل أن تجد في القرآن أنى توجهت قاعدة لتظيم نشاطها أخلاقيا، ووسيلة لدفع جهدها، ورحمة للضعفاء ومثلا أعلى للأقوياء."[٤١]

وإنسانية الشريعة القرآنية هي في معناها الحقيقي من غير المجاملة، أي أنها تخاطب الإنسان بأجمعه وأكمله دون تمييز بين شعب وشعب أو بين فئة وأخرى كما حُكي عن اليهود في قولهم: (ليس علينا في الإميين سبيل) أو تحريمهم التعامل بالربا بين الإسرائيلين بعضهم ببعض وإباحته مع غيرهم. كما أنها لا تخاطب العقل دون القلب، ولا الروح دون الوجدان، ولا الفكر دون النفس.

فشريعة القرآن ليست لجنس دون جنس، ولا للون دون لون، ولا لإقليم دون إقليم، ولا للعقليين دون العاطفيين، ولا للروحيين دون الماديين، وللحكام دون المحكومين، ولا للأغنياء دون الفقراء، ولا للنفسيين دون المفكرين، ولا لصنف الناس دون آخر، وإنما تخاطب الذات الإنسانية بكل مقوماتها وخصائصها وأبعادها، إنها كتاب الجميع ودستور الجميع من رب الجميع.

وإنسانية الشريعة القرآنية لا تقتصر على كونها تستهدف إلى مصحلة الإنسان وتخاطب جميع الكيان الإنساني، بل تجاوزت إلى مراعاتها المبادئ والطبائع الإنسانية العادلة غير جائرة ولا ظالمة. فهي دائما بصدد محاربة الرذائل التي تأصلت في العرف الإنساني العام، والتي توارثها الأجيال خلفا عن سلف، وفي أحقاب متطاولة.[٤٢]

فلما كان الاسترقاق إهدارا للكرامة الإنسانية، أعلن القرآن ثورة غاضبة على تلك الرذيلة المزمنة التي أورثتها الحضارات الفاسدة قبل الإسلام. فأعد لإنقاذ هذه العمارة الإنسانية المحترقة المتآكلة جهازا مركبا من ثلاث أجهزة: نطاق من الحواجز ضربه حول النار حتى لايندلع لهبها إلى جارجها، ومفاتيح فتح بها أبواب الدار لتطلق منها كل من استطاع النجاة، وميازيب من الغيث صبها على من بقي في الدار لتكون

[٤١] محمد عبد الله دراز، **دستور الأخلاق**...، ٦٨٤.

[٤٢] محمد عبد الله دراز، **الربا** ...، ٩.

النار عليهم بردا وسلاما، ريثما يتيسر لهم الخروج منها.[٤٣]

ولما يظن ظان أن الربا حلال مثل البيع لتساويهما في الزيادة على رأس المال، بين دراز أن البيع والربا –رغم تساويهما في الزيادة على رأس المال– يختلفان اختلافا جوهريا في البواعث الأدبية والعدالة الإنسانية. فالبيع معاوضة صحيحة خالية من أكل أموال الناس بالباطل، والربا زيادة لا يقابلها عوض، فهو ظلم. كما أن البيع جهد ونشاط وتحريك للاقتصاد، بينما الربا في ركود وهبوط واستغلال لحاجة الفقير. "فلا يمكن للشريعة القرآنية التي تتجه كلها منذ البداية إلى استنكار كل تعويض يطلب من المقترض وتضع الإحسان إلى الفقير في أبرز موضع قانونها أن إذ تأذن للغني أن يطالبه ببعض الزيادة على الدين؟"[٤٤]

وأكد دراز أن الضمير الإنساني الصافي ليدرك بنوع الحدس المباشر مدى الفرق بين الربح من طريق المعاملة (البيع) والربح من طريق المجاملة (القرض). فمن لم يتجل له ذلك الفرق الواضح فقد أخفته عن عينيه غشاوة الهوى وحب الأثرة أو الغفلة وعدم التدبر. ويقول في ذلك متسائلا: "أليس كل واحد منا يستنكف حقيقة من أن يطالب بتعويض مالي عن ماعون يعيره لمن يحتاج إليه، أو عن مساعدة أدبية كائنة ما كانت يقدمها للغير، عملا بقواعد حسن الجوار وأدب الاجتماع؟ فلماذا يختلف النظر في الأمر حينما تكون المعاونة على وجه القرض للأشياء التي يمكن أن ترد بمثلها، مع أن الشأن في الحالين واحد؟"[٤٥]

فالتشريع القرآني بإنسانيته يقوم دائما على الحيلولة دون المحاباة لرأس المال على حساب الجمهور الكادح، والسعي لتحقيق نوع من التجانس والمساواة بين أفراد الأمة. إنها لكلمات قصيرة ولكنها ذات مدى بعيد، تلك التي يرسم فيها القرآن دستور هذه السياسة، حيث يقول: كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم.[٤٦]

ولذا، كان إلى جانب تحريمه المعاملة الربوية وضع القرآن شريعة الزكاة، وهي

---

[٤٣] محمد عبد الله دراز، **نظرات في الإسلام**...، ١١٨.
[٤٤] محمد عبد الله دراز، **الربا** ...، ١٣.
[٤٥] **المرجع نفسه**، ١٩.
[٤٦] المرجع نفسه، ٢٠.

بمثابة الضريبة الإنسانية يدفعها من يملكون نصابها إلى بيت مال المسلمين، ليتولى صرفها في أوجهها، وقد روعي في أوجه الصرف هذه أن تمت معظمها إلى الإنسانية بصلة.[٤٧] وشريعة الزكاة عند دراز هي شريعة فريدة لا نجدها في الشرائع بأسرها، سماوية كانت أم وضعية. وهي تشريع إنساني الذي يفرض على المسلم الغني ضريبة مقدسة ليفيد منها المجتمع الذي يعيش فيه، ويفيد منه الدولة التي ينتسب إليها، حتى لا تعيش مسلم معدوما محروما ولا يبقى غني أنانيا جشعا.[٤٨] فالإسلام دين إنساني قبل كل شيء.[٤٩]

بل وأبعد من ذلك إن الوحدة التي يرمي التشريع القرآني إلى تحقيقها لأوسع مجالا وأبعد مدى من أن تقف عند حدود الجيل الإنساني الحاضر، إنها تريد أن تنتظم في سياج واحد كل الأجيال الماضية والحاضرة والمستقبل. يقول دراز: ''بل نقول إنها أوسع رقعة من أن تقف عند عنصر النبوة المحمدية وإنها تتجاوز ذلك العصر إلى عصور النبوات الأولى، وذلك أن الشريعة المحمدية لم تنشئ هذه القبلة إنشاء، وإنما جائت مصدقة ومقررة للقبلة التي أسستها النبوات النسابقة. وهذا من أوضح الأدلة على سماحة الإسلام وسعة أفقه وشدة حرصه على جمع كلمة النبيين، وتوحيد رابطة المؤمنين بالأديان السماوية كلها.''[٥٠]

٥. شريعة واقيعة

ويراد بالواقعية هنا أن القرآن لم يغفل الواقع في كل ما أحل وحرم، ولم يهملهَ في كل ما وضع من أنظمة وقوانين للفرد وللأسرة وللمجتمع وللدولة وللإنسانية. أي بتعبير آخر إن الشريعة القرآنية بتعاليمها ليست مجرّد قيمٍ عُليا تحلّق في سماء التنظير المجرّد الحالِم، ولكنها تنبثق من واقع الناس وتُراعي واقعهم، وتتلاءم مع فِطَر الناس وتكوينهم، وميولهم ورغباتهم، وتبايُنِ قدراتهم ومَلَكاتهم، وما يلحقهم من نقائص وحالات ضعف، فضلاً عن مراعاتها لظروف الواقع وملابساته.

---

[٤٧] محمد عبد الله دراز، **نظرات في الإسلام**...، ٣٠.
[٤٨] محمد عبد الله دراز، **نظرات في الإسلام**، ٤٠-٤١.
[٤٩] **المرجع نفسه**، ٣٨
[٥٠] **المرجع نفسه**، ٣٣.

ومن ملامح واقعية الشريعة القرآنية عند دراز أنها تتضمن عنصران مهمان يجعلانها محل الإعجاز: أولهما عنصر العبادات بأنواعها العقلية والروحية والبدنية، وثانيهما عنصر المعاملات. وعدم اقتصار التشريع القرآن على جانبه التعبدي ليس إلا مراعاة لواقع حياة البشر، ولأن الناس في حياتهم مضطرون إلى التعامل، ولا تقف بنا المعاملات عند حدود البيع والشراء وما إليهما، بل هي شاملة تمتد إلى العلاقات بشتى ألوانها والروابط في مختلف ألوانها.

وإلى جانب ذلك كانت شريعة القرآن لا تغفل أيضا الواقع الإنساني الذي تفاوت استعدادهم لقبول الشرائع الجديدة، فلذا راعت بالتدرج في معالجته للأمراض المزمنة التي تعاني منها الإنسانية، ولا تأخذها بالعنف والمفاجأة، بل تتلطف في السير بها إلى الصلاح على مراحل متريثة متصاعدة حتى يصل إلى الغاية.[٥١] فتحريم الخمر مثلا، لم تأت القرآن المفاجأة ولم يبطله بجرة قلم، بل ولم يحرمه تحريما كليا إلا في المرحلة الرابعة من الوحي. أما المرحلة الأولى التي نزلت في مكة فإنها رسمت الوجهة التي سيسير فيها التشريع، وأما المراحل الثلاث التي نزلت بالمدينة فكانت أشبه بسلم: أولى درجاته بيان مجرد لآثار الخمر وأن إثمه أكبر من نفعه، والدرجة الثانية تحريم جزئي له، والثالث تحريمه التحريم الكلي القاطع.[٥٢] فهذا المنهج التدرجي في التشريع هو بلا شك يوافق وطبيعة الإنسان التي تميل إلى التدرج والتيسير وتنفر من العنف والمفاجأة والتنفير.

وشريعة القرآن لا تجنح أبدا إلى المثالية الخيالية —كدوام الحب والرضا والعفو– التي أشبه ما تكون بضرب من ضروب المحال؛ لأنها تكليف للنفس فوق طاقتها وضد عرائزها وطبائعها. وطبيعة النفس البشرية جبلت على نزعة الغضب كما جلبت على نزعة الرضا، وجبلت على نزعة الكراهية كما جلبت على نزعة الحب. فلذا جاء القرآن بشريعة تمزج بين الرضا والغضب، والحب الكراهية، والعفو القصاص، وقال تعالى: (ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعكلم تعقلون) إلى جانب قوله (فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ).

---

[٥١] محمد عبد الله دراز، **الربا** ...، ٩.

[٥٢] محمد عبد الله دراز، **دراسات إسلامية**...، ١٦٢.

ويقول في ذلك دراز: ''وإذا كنا نرضى في كل حال فلا بد أن نتخلى عن الرجولة والنخوة، وقد كان الرسول –صلوات الله عليه –يغضب إذا انتهكت محارم الله. وإذا كنا نحب في كل حال، فلا بد أن نغض الطرف عن كل ما هو بغيض، وبذلك لا تظه قيمة الحب، وقد كان رسول الله يحب ويبغض في الله. وإذا كنا نعفو في كل حال، فلا بد أن نتخلى عن القوة والشجاعة، ونضرب صفحا عن قاعدة القصاص، وهذا كتاب الله يقول: (ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب). إن الإسلام يرغب في الواقعية الحازمة تطبيقا لمبدأ العدل، كما يرغب في المثالية المعتدلة تطبيقا لمبدأ الإحسان، وهذا ما عناه القرآن حين قال:(إن الله يأمر بالعدل والإحسان).''[٥٣]

الخاتمة

تلك هي خصائص الشرائع القرآنية ووجهاتها من خلال مؤلفات دراز، فهي بلا شك شريعة معجزة أعجزت الإنسانية بأسرها عن الإتيان بمثلها. فكل جزء من أحكام الشرع التي جاء بها القرآن فيه علاج لأدواء الإنسانية الإجتماعية، وتوجيه المجتمعات نحو الخير، وفيه غذاء طيب لنمائه. إن كل ما في الإسلام من مبادئ سواء أكانت مبادئ تتعلق بالعقيدة أو كانت مبادئ تتعلق بالأخلاق أو التنظيم الإنساني، يبفق تمام الاتفاق مع الفطرة الإنسانية وميولاتها. حتى أن أعرابيا سئل لماذا آمنت بمحمد؟ فقال ما رأيت محمدا يقول في أمر افعل والعقل يقول لا تفعل، وما رأيت محمد يقول في أمر لا تفعل والعقل يقول افعل.

فإذا كانت المشاكل التي تقوم في العالم، سواء أكانت في الاقتصاد أم في الاجتماع أم في السياسة سببها يرجع إلى فقد الضمير الإنساني والسير وراء الشرائع الوضعية الإنسانية التي لا تعلم بالضبط حقيقة الإنسان وطبائعه، فإن العلاج لا بد أن يكون بتهذيب ذلك الضمير ويصفيته، والأخذ بشريعة أخرى ملائمة لطبيعة الإنسان ومراعية عن خصائصية. ولم يكن ذلك كله موجودا إلا في شريعة القرآن، فهي شريعة عامة وأبدية تكفل للبشرية مطامحها المشروعة ولكنها تعترض بكل وضوح وتأكيد على شهواتها الجامحة والمتحكمة. ومن خلالها سيجد الإنسان لكل سؤال حكما محددا

[٥٣] محمد عبد الله دراز، **نظرات في الإسلام**...، ٨٨–٨٩.

وقاطعا، يفرض نفسه إجابة فريدة من شأنها أن تؤلف بين أكثر المشاعر نباهة واتزانا. ولهذا يكون شريعة القرآن هو التشريع الوحيد الذي يصلح لحكم الإنسانية وفيه علاج أدوائها وحل مشكلاتها.[]

مصادر البحث

الأزهري، محمد منير. ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م. **محمد عبد الله دراز وجهوده في الفكر الإسلامي المعاصر**. القاهرة: دار القلم.

الخالدي، صلاح عبد الفتاح. ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م. **إعجاز القرآن البيان ودلائل مصدره الرباني**. عمان: دار عمار.

دراز، محمد عبد الله. ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م. **نظرات في الإسلام**. القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

_____. ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م. **من خلق القرآن**. قطر: إدارة الشؤون الدينية.

_____. ١٤١٨هـ/١٩٩٨م. **دستور الأخلاق في القرآن: دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن**. بيروت: مؤسسة الرسالة.

_____. ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م. **الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان**. الكويت: دار القلم.

_____. ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م. **المختار من كنوز السنة**. الدوحة: د.ط.

_____. ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م. **دراسات إسلامية في العلاقة الدولية والاجتماعية**. الكويت: دار القلم، ط.٦.

_____. د.ت. **الربا في نظر القانون الإسلامي**. القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

شاكر، محمد محمود. **مداخل إعجاز القرآن**. القاهرة: مكتبة المدني، د.ت.

الشنقيطي، محمد بن المختار. ١٤٣١هـ/٢٠١٠م. **خيرة العقول المسلمة في القرن**

العشرين. الدوحة: د.ط.

فضلية، أحمد مصطفى. ١٤٣١ هـ/ ٢٠١٠م. **الإمام المجدد محمد عبد الله دراز: سيرة وفكر**. القاهرة: مكتبة الإيمان.

_____. وآخرون. ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م. **الدكتور محمد عبد الله دراز: دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه**. القاهرة: دار القلم.

قطب، سيد. ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م. **الإسلام ومشكلات الحضارة**. القاهرة: دار الشروق، ط. ١٢.

الكرنز، أحمد محمد أحمد. ٢٠٠٨/١٤٢٩. "الإعجاز التشريعي لآيات الحج في القرآن"، **بحث مقدم لنيل درجة الماجستير**. غزة: الجامعة الإسلامية.

مسلم، مصطفى. د.ت. **مباحث في إعجاز القرآن**. الكويت: دار القلم.